

من أين نبدأ

بقلم الدكتور: المصري مبروك
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - أدرار

إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه». (1)

وأخرج الترمذي الحكيم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه رضي الله عنه قال: «لن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها، وزيادة العمر ذرية صالحة يرزقها العبد، يدعون له من بعد موته يلحقه دعاؤهم».

وإذا كانت الدنيا حلوة خضرة تشتهيها الأنفس وتهواها، قد أقبلت بزخارفها، تهز الإيمان وتُميل أفئدة إليها، فينسى الإنسان بذلك أو يتناسى الوعد الحق، حتى إذا وقعت الوقائع، بهت المرء عندها وندم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَىٰ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَنهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ﴾
يونس: ٢٤.

هذا تنبيه للمؤمنين حتى لا ينساقوا بحبال الدنيا فيقعوا في الغفلة ويصيبهم بذلك الرأ فتعمى قلوبهم: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ

إن التربية والأسرة في الإسلام لا يفترقان أبدا، لأن المرء كيفما كان في هذه الدنيا، إنما هو ماض إلى قرار، لا ينفعه شيء من النسب والحسب والجاه والمال، وإنما ينفعه ما صلح من أعماله إذا أخلصها الله تعالى، ولا يتحقق صلاح الأعمال ولا الإخلاص فيها إلا بالتمسك بما جاء به رسول الله ﷺ، وإن وسيلة التمسك بحبل الله المتين لا يتأتى إلا بالعلم والتعلم، ولن ينفع علم ولا عمل إلا بالأدب والتخلق بأخلاق الصالحين، حتى يكون ذلك طبعا تتطبع به الأجيال وتنشأ عليه الناشئة، فيبقى بذلك الأثر الطيب الذي يذكر به الإنسان فيترحم عليه، ويدعو له دعاء صالحا يشفع فيه يوم يكون أشد حاجة إلى رحمة تأتيه.

أخرج الطبراني عن حفصة أنه رضي الله عنه قال: «لا يدع أحدكم طلب الولد فإن الرجل

قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿المطففين: ١٤﴾

وَحَبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟

ما الذي تفيده التربية إذا لم تتوج بحب الله وحب رسوله ﷺ؟

كيف تبقى أسماؤنا بعد موتنا إذا تركنا أولاداً لا يحبون الله ولا رسوله ﷺ؟

كيف نزركو أعمارنا، إذا لم نزرکہا بالخلف الذي يحب الله ويحب رسوله ﷺ؟

إنها وقفة يجب أن نقفها للمحاسبة، ذلك أن الأمل قائم في الله تعالى ما دمنا نقرأ كتابه ونركع ونسجد له، ونشهد ألا إله إلا هو وأن محمداً عبده ورسوله، حتى وإن قصّرنا في ذلك تارة، وابتعدنا عن النهج القويم تارة أخرى، وغمرنا الشك في النصر والعزة فانهمزنا أمام قوة العدو تارات أخرى، وشعرنا أحياناً كثيرة بالذل والهوان.

إن روابط الإيمان لا تزال قائمة ما دام فينا من يذكرنا بربنا، وإن الذكرى وإن كانت ضعيفة المفعول فينا، فإن تكرارها والمداومة عليها وإن قلّ سامعوها ستأتي أكلها في كل حين بإذن ربها^(٣).

يقول الشيخ زروق رحمة الله:

ولذلك نبّه الرسول ﷺ المؤمنين وحذّرهم من مخالفة أخلاق الصالحين، ومن أبرز وأهم أخلاق الصالحين التمسك بسنة الرسول ﷺ، وقد نبّه الصادق الأمين من مغبة مخالفته في أحاديث كثيرة منها:

ما أخرجه ابن ماجه في سننه عن مقداد بن معد يكرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث يحدث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل؛ فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه. ألا وإن ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله»^(٢).

إن الحديث يرمي إلى مقصد أخلاقي تقاعس الناس عنه في هذا الزمان، وكان المسلمين لا تفيدهم الموعظة، ولا يستشعرون لدغ الأفاعي، أين نحن من قول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ النساء: ٨٠؛ ومن قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَأَنفَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ الحشر: ٧.

أين نتاج تربيّتنا من حبّ الله تعالى

العظيم في واقعنا؟

من يقبل منا النصيحة، ومن يتجرأ ليؤدي واجب النصح، وقد قيل فينا إنه لا خير فينا إن لم نتناصح، ولا خير فينا إن لم نقبل النصيحة؟

هل خلقنا سهلاً كالأنعام؟ كلا:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٥.

حان وقت الجد وما علينا إلا أن نشمر على سواعدنا لنعمل وفق المسؤولية الملقاة على عواتقنا، لنحقق حباً لله ولرسوله ﷺ ولآله ولعامة المسلمين وخاصة صلحائهم، إذ المرء مع من أحب يوم القيامة.

تتجسد معاني الحب الحقيقي في تجلي قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الشورى: ٢٣.

هذا الخير الذي جاءنا به سيدنا محمد رسول الله ﷺ، لم يطلب منا مقابلاً عليه سوى مودة قرابته، وقد لاقى ما لاقى من الصعاب والتعذيب والطرود والحصار بل والضرب حتى دميت قدماه ﷺ، وعندما يخبره الله بأن يفعل بهم ما يشاء، يقول لا، لعل الله يخرج من أصلاهم من يعبد الله،

«فالنصيحة من الإيمان، والتحقق بها من علامات الإيقان، وأعظم الناس جهلاً من جهل نفسه وأهمل أحواله حتى دخل رمسه، وقد قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»، وقال ﷺ: «الدين النصيحة قالوا: لمن يا رسول الله قال: لله ولرسوله ولكتابه وعامة المسلمين وخاصتهم»⁽⁴⁾.

فالنصيحة لله، باتباع أمره، ونصرة دينه، والتسليم له في حكمه، والنصيحة لرسوله ﷺ: باتباع سنته، وإكرام قرابته والشفقة على أمته.

والنصيحة لكتابه: بتدبر آياته، واتباع مأموراته، وتحسين تلاوته.

والنصيحة لعامة المسلمين: بالذب عن أعراضهم، وإقامة حرمتهم والنصرة لهم في جميع أحوالهم، جلباً ودفعاً.

والنصيحة لخاصتهم: بالطاعة للأمراء، إلا في محرم مجمع عليه، والتصديق للعلماء إلا فيما لا يهدي العلم إليه، وللفقراء بالتسليم فيما لا إنكار يجب عليه⁽¹⁾.

ما الذي حققناه من هذا الحديث

وتعالى وصى بأولاد الصالحين فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ الكهف: ٨٢. فما ظنك بأولاد الأولياء؟ وإذا كان ذلك في أولاد الأولياء فما ظنك بأولاد الشهداء؟ وإذا كان ذلك في أولاد الشهداء، فما ظنك بأولاد الصديقين؟ وإذا كان ذلك في أولاد الصديقين، فما ظنك بأولاد النبيين؟ وإذا كان ذلك بأولاد النبيين فما ظنك بأولاد المرسلين؟ وإذا كان ذلك بأولاد المرسلين، فما عسى أن تعبر عنه عن أولاد سيد المرسلين، وقد قال ﷺ: «(قدموا قريشا ولا تقدموها)»^(٧)، وقال «(لا تؤذوني في عائشة)»^(٨)، وقال «(لا تسبوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)»^(٩).

لقد استحق رسول الله ﷺ التقدير والتبجيل والودّ والحبّ، بل استحق ﷺ أن يُفتدى بأرواحنا وأرواح أبنائنا وأمهاتنا، واستحقّ قرابته الودّ من كل مسلم لحبه ﷺ، جاء في الصحيح عن زيد بن أرقم قال: (قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى "خما"، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: "أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول من

وقد قال ابن عباس في تفسير الآية: (يعني لا تؤذوا قرابتي من بعدي)، وجاء أيضاً أن المعنى: «(لا أسألكم عليها أجراً أبداً، ولكن أسألكم أن لا تؤذوني في ذوي القربى)»^(٥) طلب رخيص مقابل أكبر نعمة أنعم الله بها على عباده، وهو الإسلام، ومع ذلك تتعاسى النفوس دونه وتأباه جهلاً وتجاهلاً.

إن الناشئة لا بد أن تُربى منذ نعومة أظافرها على حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ، ومودة قرابته، وعباد الله الصالحين، وإن كانت الأساليب المتبعة قد فشلت في تحقيق أهدافها: «(حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ)»، فإنه حان الوقت الذي يستدعي منا تطوير الأساليب وتجديدها حتى يتحقق الإيمان الحق «(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)»^(٦) [ذكره الحكيم الترمذي].

كلنا يدعي الإيمان! فما حقيقة إيماننا؟ لي طرح كل منا هذا السؤال على نفسه، فلا شك حينئذ أنه سيجد الجواب الشافي الصحيح، لأنه إن استطاع أن يخدع المرء غيره، فإنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه، وهو يعرف حقيقتها.

قال بعض العلماء: إذا كان الله سبحانه

الفضيلة لتبني مستقبلاً آمناً أساسه الدين، وعمدته حب الله وحب رسوله ﷺ، ورأس سنامه العمل، ولذلك يقول النبي ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضيهما: «أحبوا الله لما يغذوكم به وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»⁽¹²⁾.

هذا لأهل بيت النبي ﷺ، فما الذي عليهم للمسلمين عامة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣.

(أراد بالرجس الذنب والتطهير من المعاصي) كما في البيضاوي⁽¹³⁾.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمر ببیت فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً». وفي رواية أنه جاء أربعين يوماً وفي رواية تسعة أشهر⁽¹⁴⁾.

هذا نداء رسول الله ﷺ إليكم أهل بيته فالتمزوا به تناولوا حب المسلمين وودهم «الصلاة أهل البيت - الصلاة أهل البيت - الصلاة أهل البيت».

والخلاصة أن البداية في تربية النشء

ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغب فيه، قال: "وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي"⁽¹⁰⁾، وفي رواية الإمام أحمد «إني أو شك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله جل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض يوم القيامة فأنظر بما تخلفوني فيهما»⁽¹¹⁾.

حقيق بكل مسلم يشهد الله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة أن يقف وقفة ليرسم من خلالها نهجا يقف به يوم القيامة أمام حوض النبي ﷺ وهو أشد حاجة إلى شربة هنية مرية لا يظمأ بعدها أبداً.

وإن المتأمل فيما سبق من آيات وأحاديث، ليهتدي إلى الحقيقة التي لا مناص منها وهي أن لا تربية من غير حب الله وحب رسوله ﷺ وحب عترته النبي ﷺ.

وإن البعد الذي حصل بفعل الحضارة الكاذبة والثقافات الواردة، والعادات التي خالفت نهج الآباء والأجداد الصالحين، لا يمكنه أن ينتج أو أن يربي أجيالاً تنطلق من

والأعمال، من أقوال هي العقائد، وأقوال اللسان، المخبرة عما في القلب، وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكرهية وتوابعها وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقة وجلة هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الحجرات: ١؛ أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

وبسلامة القلب تسلم الأسر والمجتمعات، ويأتي الخير إلينا من السماء نازلا ومن الأرض صاعدا فنسعد بذلك سعادة الدارين.

التربية الصالحة إنما تبدأ من تكلم النقاط الست التي رأيت أنه لا بد من الإشارة إليها لارتباطها بواقعنا ولابتعادنا عن النهج السليم الذي يحقق البداية السليمة التي توصل إلى الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ الشعراء: ٨٨ - ٨٩ والقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله، ليس فيه شرك بوجه، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى، إرادة ومحبة، وتوكلا وإنابة وإخبارات وخشية، ورجاء وإخلاصا لله، فإن أحب، أحب في الله وإن أبغض، أبغض في الله، وإن أعطى، أعطى لله، وإن منع، منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكم لكل من عدا رسول الله ﷺ فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمان والافتداء به وحده، دون غيره في الأقوال

الهوامش

- (١) - أخرجه الطبراني.
- (٢) - سنن ابن ماجه باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليط على من عارضه.
- (٣) - سنن ابن ماجه ذكر الموت والاستعداد له ورواه الترمذي في الباب 25 ثم أبواب القيامة بنحوه وقال هذا

حديث حسن.

- (4)- الحديث عن مسلم في الإيمان باب بيان الدين النصيحة.
- (5)- النصيحة الكافية لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد ابن العباس البرنسي الفارسي المعروف بزروق - مكتبة الظلال الإحساء ط (1) ص 15، 16، 4-.
- (6)- إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى - الأبصار بن علي الصبان الأبصار - دار الفكر - ص 144.
- (7)- أخرجه الحكيم الترمذي.
- (8)- قال الهيثمي في المجمع (28/10) رواه الطبراني وفيه أبو معشر وحديث حسن.
- (9)- البخاري في فضائل الصحابة.
- (10)- البخاري في فضائل الصحابة.
- (11)- الحديث رواه مسلم.
- (12)- الحديث رواه الإمام أحمد.
- (13)- رواه الترمذي والحاكم وصححه .
- (14)- إسعاف الراغبين المرجع السابق ص 114.
- (15)- إسعاف الراغبين ص -116 117

